الفصل العاشر

عالم من دون رب

1600 حتى الوقت الحالي

رعت المسيحية الأرثوذكسية ابتعاداً بشرياً وتوجهاً نحو رأي يقدم قليلاً من الانتباه إلى فكرة القداسة، فبالتبشير وتعليم الناس أن المملكة الأرضية فارغة من القداسة، بنت المسيحية الأساس العقائدي للمجتمع الحديث، وخلّد المفكرون الحديثون مفاهيم المسيحية الأرثوذكسية، وقدموا شرعية علمية للإيمان بالمراتب الكهنوتية المتسلسلة، وبالتحكم والصراع، ومع حلول القرن الحادي والعشرين، هناك - على كل حال - وعي متزايد ليس فقط بتراجع مثل هذه المفاهيم، ولكن أيضاً بمحدودية صحّتها العلمية.

وحالما تَقبل الناس الاعتقاد بأن الرب لم يمتلك القدرة على إدارة القدرة المتفوقة في العالم المادي، أصبح شائعاً - خاصّة بين المثقفين - الاعتقاد بأن الشيطان أيضاً لم يعد يمارس مثل هذه السلطة، وما أن جرى رفض فكرة السحر المقدس، بات من السهل قبول أنه ليس هناك سحر مقدس أو شرير، يعمل في العالم المادي، وعوضاً عن ذلك جرى تصور الحقيقة المادية على عملية آلية لعناصر غير حية تعمل عملاً تاماً بناء على القوانين العقلانية والمحددة، شبه عمل ساعة هائلة الحجم، ومثلما فعل لافيو Lafew - أحد شخصيات شكسبير التمثيلية - في قوله عن العصر:

«لقد قالوا بأن المعجزات قد انتهت، ولدينا شخصياتنا الفلسفية، لتصنع الحداثة، والاعتياد، والأشياء المتفوقة، وبلا سبب»[1].

obeikandi.com

وكان هذا التصور الجديد، والرأي حول العالم، هو سمة ما بات يعرف باسم «عصر التنوير»، وكان عصر التنوير هذا الذي افتقر إلى الانفعالات الخلاقة لعصر النهضة، قد أوحى به مفكرو القرن السابع عشر مثل: غاليلو Galileo، ورينه ديسكارت Rene Descartes، وجوهانس كيبلر Johannes Kepler، واسحق نيوتن Isaac Newton، وفرانسيس بيكون Francis Bacon، وبيندكت سبينوزا Benedict spinoza، وجون لوك Johan Locke، وفي الوقت ما زال فيه الكثيرون يعتقدون بأن الله قد خلق الدنيا، فإنهم الآن يرون بأن العالم يعمل وفقاً لقوانين شمولية مفهومة، لا تتطلب المزيد من التدخل من جهة الرب.

وعكست هذه الاعتقادات الجديدة والميول، عقائد وميول المسيحية الأرثوذكسية وذلك بحكم أن المسيحية الأرثوذكسية قد آمنت بأن هناك انفصالاً بين السماء والأرض، وعلى هذا الأساس تصور العلماء وجود انفصال مشابه، وهي فكرة أبدعت من قبل ديسكارت، مثل القول بوجود انفصال بين العقل والقضية، وكما آمن المسيحيون بأن الرب قد انفصل عن العالم المادي، مثل ذلك آمن العلماء بأن الإدراك، والحقيقة العلمية قد انفصلا عن بعضهما بعضاً، ومع أن المسيحيين الأرثوذكس والمفكرين الحديثين، يختلفون في عقائدهم حول الشيطان، إنهما معاً يفهمون العالم المادي على أنه فارغ من اللاهوت والقداسة.

ووجد الاعتقاد بأن العالم المادي يعمل بصورة مستقلة عن الإدراك، قبولاً شرعياً في قوانين نيوتن، ولقد صورت قوانينه عن الحركة والجاذبية، العالم على أنه يعمل على أساس قاعدة حيادية ومستقلة تماماً، وآلية، ومقررة، وأسس نيوتن عمله كله وأقامه على براهين مجربة، جاءت بمثابة شاهد لصالح الاعتقاد بأن الموضوع منفصل عن التأثير من القوى الخارقة، وعن الإدراك، ومنذ أن الاعتقاد بأن الإنسان الذي يدير التجربة، لن يكون له تأثير أو نفوذ على الموضوع، فإن نتيجة كل تجربة يمكن أن تكون مزدوجة[2]، وبكلمات أخرى، لقد اعتقد أنه من الممكن لأي شخص إدراك الظواهر المادية من دون أن يؤثر عليها، فبقبول الفكرة المسيحية الأرثوذكسية، اتفق المفكرون الحديثون على أن الإدراك هو مثل ذلك لا يؤثر على التصورات المادية.

توضح هذه اللوحة الخشبية فكرة نأي البشرية وابتعادها عن الكون، وتقترح الصورة هنا أن الناس انتقلوا من العالم السحري ذي القوى المتجسدة، إلى عالم مختلف، عالم آلي يعمل مثل ساعة كبيرة، وبات عمل الكون معزواً ليس إلى تدخل فوق طبيعي أو سحري بل إلى قوانين نيوتن في الجاذبية والحركة.

وتبنى رجال العلم والفلاسفة أيضاً مفهوم المراتب اللاهوتية المتسلسلة، وطبقوها على عملهم، وقد تطلب نظام المراتب اللاهوتية المتسلسلة، أن تكون جميع العناصر منفصلة عن بعضها بعضاً، ومرتبة وفقاً لتفوقها أو تدنيها، وتم التركيز على الفوارق بين العناصر أكثر من التركيز على علاقة تفوقها، وارتباطها بالجميع، ومثل هذا ركز رجال العلم على الانفصال، والانعزال والتحليل بإنشاء المزيد من العناصر الأصغر، ومنح القليل من الانتباه إلى العلاقة الرابطة للعنصر بالعناصر الأولية المحيطة به أو بالمحيط العام.

السير إسحق نيوتن، قدمت قوانينه في الجاذبية والحركة تغطيه للاعتقاد الأرثوذكسي المسيحي بأن الرب لم يعد يعمل معجزات أو يتدخل في العالم المادي.

ورددت الفلسفة الحديثة أصداء الفكرة نفسها، مع الاعتقاد بأن الحقيقة تصدر عن - وعما - كان قد تسبب بعدم الأهمية، ركزت على الأحداث العشوائية أكثر من تركيزها على من أين، وبوساطة أي شأن أكبر جاءت الإدراكات المقصودة، وكان ديسكارت هو الذي ابتكر هذا الاعتقاد بعبارته والمشهورة: Cogito ergo sum أي: «أنا أفكر ولذلك إنني أنا»، فعمل التفكير الأَصغر، والأقل أهمية يقود إلى الأكبر،

وإلى حقيقة الوجود الأعظم أهمية، وفي الوقت الذي ما يزال فيه الكثيرون يؤمنون أن الله قد خلق بالأصل العالم، يرى معظم الناس الآن بأن الحقيقة يمكن أن توجد، ليس بوساطة التركيز - أو محاولة - فهم خطة الرب أو نيته، بل بفهم الأجزاء الآلية، المنفصلة، في العالم.

ووجد الاعتقاد بضرورة التحكم والصراع، وكذلك بغياب التدخل اللاهوتي، وجد تسويغاً جديداً في نظرية شارل داروين حول الارتقاء، ومثلما ألحت المسيحية الأرثوذكسية، خاصة أثناء الإصلاح الكنسي على نبل الصراع، وعلى إثم السحر، وعلى المساعدة المتفوقة، صور داروين العالم الطبيعي بمثابة مكان حيث الصراع والتباري هي سمة كل جانب من جوانب «معركة الحياة الكبيرة والمعقدة»، والصراع بالنسبة لداروين، كان ضرورياً للحفاظ على النظام الطبيعي، وللحيلولة دون أي انفجار مأوساوي يصيب أيٍّ من الناس.

وفي الوقت الذي أصر فيه المسيحيون الأرثوذكس على أن التحكم والصراع كانا ضرورين لدعم وتماسك المراتب اللاهوتية المتسلسلة، آمن داروين أن الصفات نفسها ضرورية للحفاظ على المراتب اللاهوتية المتسلسلة للطبيعة، حيث قال:

«إن الإنسان مثله مثل أي حيوان آخر، تقدم - بلا شك - إلى وضعه الرفيع الحالي، من خلال الصراع من أجل الوجود، وذلك نتيجة لمضاعفته السريعة، وإذا كان سوف يصعد متقدماً أكثر، يخشى أنه لا بد أن يبقى خاضعاً لخدمة الصراع، وإلاّ فإنه سوف يغرق في الكسل والعطالة والناس الموهوبون أكثر من سواهم سوف لن يكونوا أكثر نجاحاً في معركة الحياة من الذين هم أقل موهبة» [3].

ورأى كل من المسيحيين الأرثوذكس، والمفكرين الحديثيين أن المراتب اللاهوتية المتسلسلة هي ضرورية، سواء أقامت تلك المراتب اللاهوتية المتسلسلة بالتفريق بين الكائنات البشرية بالنسبة لقربها من الرب، أو تبعاً لقدرتها على البقاء، وقدمت نظريات داروين عقلانية جديدة لإخضاع الناس، تبعاً لجنسهم أو كونهم ذكوراً أو نساء، فمن المعتقد أنهم أصبحوا الآن أضعف «طبيعياً».

السير شارل داروين: لقد وجد الاعتقاد الأرثوذكسي المسيحي بضرورة وجود التسلسل الطبقي، والتحكم والصراع، تسويغاً جديداً في أعمال داروين.

obeikan.com

وعلى الرغم من التشابه، غالباً ما فكرت المسيحية الأرثوذكسية بمعارضة العلم الحديث، والتفكير واستمرت الكنيسة الكاثوليكية في سلوكها التقليدي بإعاقة الأعمال العلمية بالتنكيل بغاليلو Galilo من خلال محاكم التفتيش، وبالمعارضة الكبيرة لعمل نيوتن[*]، وفي الحقيقة هناك فوارق عقائدية بين المسيحيين الأرثوذكس، والمفكرين الحديثين، فالمفكرون الحديثون - على سبيل المثال - نفوا فكرة أن الشيطان قد مارس نفوذاً متفوقاً، في حين أصر الأرثوذكس بحرارة كبيرة عليها، ولم تختلف نظرية داروين حول الارتقاء عن المفهوم المسيحي حول الخليقة، ومع ذلك فإن فذلكة التفكير الحديث، بأن العالم يعمل من دون تدخل لاهوتي، أو سحر، كانت واحدة من المسائل التي قام كل من الكاثوليك والبروتستانت بتأييدها بشدة متناهية.

حتى شارل داروين نفسه لم يعتقد بأن عمله يعارض عقائد المسيحية الأرثوذكسية، ومن المؤكد أن مسيحيي الإصلاح الكنسي سيتفقون على أن الأعمال الحقيقية للمادة «لا تتم بوساطة عمل إعجازي للخليقة»، بل بالحري تتم خلال الصراع والتباري[4]، وقد كتب داروين في «أصل الأنواع»: «إنني لا أرى وجود سبب جيد لماذا هذه الآراء المقدمة في هذا المجلد سوف تسبب صدمة للمشاعر الدينية لأي واحد»، وقد وصف كيف أن رجلاً دينياً:

«.. قد تعلم ليرى أنه مفهوم صحيح ونبيل عن الرب، أن تؤمن أنه خلق عدداً قليلاً من الأشكال الأصيلة، القادرة على التطور الذاتي إلى أشكال أخرى ومحتاجة، مثل أن تعتقد أنه يطلب عملاً جديداً للخلق لتزويد الفراغ الذي تسبب بعمل قوانينه»[5].

ويؤيد التفكير الحديث المفاهيم الأرثوذكسية المسيحية، أكثر بكثير من معارضته لها.

(*) في الوقت الذي تحدَّتْ فيه نظرية غاليلو حول مركزية الشمس، نظرية الكنيسة بأن الشمس تدور حول الأرض، وتحدى عمل نيوتن الأسس من أجل السلطة الكاثوليكية، ووضع إصراره حول إمكانية تجارب مختلف أنواع الظواهر المادية، موضع الشك والتساؤل قاعدة الكنيسة من أجل إدعاء السلطة، فقد رست سلطة الكنيسة الكاثوليكية على الخلافة الرسولية، وعلى فكرة أن الحقيقة الصادقة قد نشرت مرة واحدة فقط، خلال الحادثة الوحيدة، عندما قام يسوع في الجسد والعظم، وبناء عليه يمكن الوصول إلى الحقيقة من خلال خلافة الرسل، الذين شهدوا القيامة.

وعلى كل حال، إنه في الوقت الذي اعتقد فيه داروين بأن عمله لا يعارض فكرة وجود رب قدير، فإن نظرياته قد استخدمت من قبل آخرين، لإنكار حتى وجود خالق بعيد جداً، وقام الإلحاد، بكل بساطة، بتوسيع نشر الفكرة المسيحية بأن الرب بعيد، وقد أقصي عن العالم المادي، وما أن قبل الناس هذا، حتى لم يعد من الصعب الاعتقاد بأن الرب غير موجود على الإطلاق، ونمت بذور الإلحاد أيضاً بين أوساط الناس، أيضاً كردة فعل ضد وحشية مطاردات السحرة، وبدأ الناس يحاججون بأن الدين لم يضمن المشاعر الأخلاقية، وأن غياب الاعتقاد الديني لم يقد إلى الانحطاط الأخلاقي، والتجرد من الأخلاق، وفي أواخر القرن السابع عشر أكد «المعجم التاريخي والنقدي» - على سبيل المثال - بأن «الإلحاد لا يقود بالضرورة إلى فساد الأخلاق»[6].

وهدد الإلحاد على كل حال أساسات الخوف القائم على النظام الاجتماعي، ومع أن الرب قد أقصي إلى موقع ومكان أكثر بعداً في السموات، بقي اعتقاد الخوف من عقوبته يضغط مؤثراً على الأخلاق الفردية، فكثير من الناس يعتقدون أن النظام القضائي يعتمد على الخوف، ففي كتابه «إعاقة العدالة بالدين»، رأى فرانك سوانكارا Frank Swancara أن:

«.. القضاة الذين صاغوا القانون العام، قد اعتقدوا أن الإنسان الذي لا يؤمن، ولا يخاف من العقوبة الربانية بعد الموت، لا يمكن الوثوق به كشاهد في المحكمة القانونية»[7].

وقد وجد معظم المفكرين في عصر التنوير أن الإلحاد مهدد مثلما وجده المسيحيون الأرثوذكس، وتساءل فولتير Voltaire قائلاً:

«ما هو الضابط، الذي بعد كل شيء، يمكن فرضه على الجشع، وعلى الجرائم وأعمال العدوان التي اقترفت من دون قصاص، سوى فكرة وجود سيد سرمدي، عيناه علينا، هو الذي سوف يحكم حتى على أفكارنا الخاصة»[8].

وكتب جون لوك Jhon Locke يقول:

«إن الذين لا يجوز التساهل معهم هم الذين ينكرون وجود الرب، حيث لا يمكن للوعود، ولا للعهود والمواثيق والأيمان، التي تربط المجتمع الإنساني، أن يكون لها أية تأثير كابح على الملحد»[9].

وفي الوقت الذي ما يزال فيه كل من المسيحيين الأرثوذكس، والمفكرين الحديثين على استعداد للتخلي عن الإيمان بالسحر وبالمعجزات، هم ما برحوا يعتمدون على الإيمان بوجود عقوبة ربانية مرعبة.

وغالباً ما صادق التفكير الحديث على العقائد المسيحية، فقد أيد مفهوم أن العالم يعمل مثل آلة، أو ساعة رأي القديس أوغسطين وقناعته بأن الكائن البشري لا يمتلك حرية الإرادة، وكتب غاري زوكاف Gary Zukav: في كتابه «رقص سادة وولي Wuli» يقول:

«إذا كان علينا قبول التدبير الآلي حسب فيزياء نيوتن - بأن العالم هو في الحقيقة آلة كبيرة - بناء على ذلك إنه من اللحظة التي خلق فيها العالم وأقلع بالحركة، فإن كل شيء كان قد وقع، كان مقرراً من قبل.

ووفقاً لهذه الفلسفة، يمكن أن يبدو بأننا امتلكنا الإرادة الخاصة بنا والمقدرة على تغيير مجرى الأحداث في حياتنا، لكننا لا نفعل ذلك، فكل شيء منذ بداية الزمان قد جرى تقريره، بما في ذلك توهمنا أننا نمتلك حرية الإرادة، فالعالم هو شريط جرى تسجيله من قبل، وهو يشغل نفسه في الطريق الوحيد الذي يمكنه، ووضع الناس هو أكثر بكثير كآبة مما كان عليه قبل مجيء العالم، فالآلة الكبيرة تركض متحركة بشكل أعمى، وكل شيء فيها هم ليسوا سوى أجزاء صغيرة» [10].

وسواء بسبب وجود التقدير المتقدم، أو بسبب تدني وضع الإنسانية في داخل مراتب التسلسل اللاهوتي، فإن الناس استمروا يعتقدون بأن الفرد يمتلك قليلاً من القوة الموروثة أو الإرادة الحرة.

وتبنى العلم المعاصر الأفكار نفسها، وشجع المسيحيين على معالجة المحيط الطبيعي بمثابة مملكة فارغة من القداسة، ووصف فيريتجوف كابرا Fritjof Capra كيف أن الإنقسام بين العقل والموضوع:

«. . قد سمح لرجال العلم بمعالجة الموضوع وكأنه ميت، ومنفصل تماماً عنهم أنفسهم، وأن ينظر إلى العالم وكأنه حشد هائل من الأشياء المختلفة قد تجمعت في آلة عملاقة. . ومنذ النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر قامت الآلية. . بصياغة العالم، وتحكمت بجميع التفكير العلمي، وصارت متناظرة مع صورة الرب الوحيد الذي حكم من الأعلى بفرض قانونه اللاهوتي عليه» [11].

وبالتبشير والقول بوجود انشطار بين المملكتين الأرضية والسماوية، أو بين العقل والموضوع، سلخ كل من المسيحيين والمفكرين الحديثيين أنفسهم عن العالم المادي.

وكثير من المفاهيم والأفكار التي كانت متأصلة في اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي، ووجدت قبولاً وتصديقاً بين المفكرين الحديثين، هي الآن في مطلع القرن الحادي والعشرين، قد تبرهن أنها ذات صحة علمية محدودة، وأظهرت الاكتشافات العلمية، وبشكل خاص جداً في «ميكانيكا الكم»، أن الفيزياء الكلاسيكية ذات قدرة محدودة جداً، في شرح عمل العالم، فالمبادئ والقوانين التي ظهر أنها تحكم الميكانيكيا، وتقرر آلية العالم، لا تنطبق بكل بساطة على الجسيمات الدون ذرية، فقد رفضت الجسيمات الدون ذرية المحاولات لتثبيتها تماماً داخل الوقت والمكان، وبين الفيزيائي ستيفن هوكنغ Stephen Haw King أن هذه الظاهرة تدعى المبدأ غير المؤكد، وقال:

«.. إنها تشير إلى نهاية لحلم نظرية العلم، وإلى نمط من العالم سوف يكون متحكماً به تماماً: والإنسان لا يستطيع توقع الأحداث المستقبلية تماماً، إذا كان المرء لا يستطيع حتى أن يقيس الحالة الحاضرة للعالم بدقة تامة»[12].

والاعتقاد بأن العالم يعمل بناء على قوانين منطقية ومحددة، هو الآن موضع تساؤل وشك، ففي الوقت الذي اعتقد فيه نيوتن ذلك، إن إعطاء ما يكفي من المعلومات، تجعل الإنسان يقرر تماماً نتيجة الحادثة، فقد أظهرت ميكانيكيا الكم أنه في أحسن الأحوال يستطيع المرء أن يعرف فقط إمكانية واحتمالات أية محصلة[13]، ووصف غاري زوكاف ما بات يعرف باسم تفسير كوبنهاغن بقوله:

«.. أرغم العلماء لدى محاولتهم لصياغة فيزيا مثابرة مستمرة، أرغموا بوساطة ما وجدوه هم أنفسهم على الاعتراف أن فهماً كاملاً للحقيقة موجود فوق قدرات التفكير العقلاني»[14].

وتحدى العلم المعاصر أيضاً الاعتقاد بأن الموضوع المادي هو تماماً بلا حياة، وغير حساس، ودائم في أعمال تقصِّيهم واكتشافهم لأعمال الأمواج، ولقد أوجد العلماء حقيقة فيزيائية مادية لكل من «مؤيدي الفكرة»، و«مؤيدي الموضوع»[15]، والانقسام بين العقل والموضوع الذي أيد الفصل المسيحي بين السماء والأرض، ليس

صحيحاً علمياً، فالعالم المادي ليس مؤلفاً من جامد وصلب، وموضوع ليس بذي حياة، كما كان يعتقد في الفيزياء الكلاسيكية، وقد كتب الفيزيائي هنري ستاب Henry Stapp يقول:

«*إذا كانت توجهات ميكانيكيا الكم صحيحة.. عندها ليس هناك عالم مادي من دون حياة، حسبما هو المعنى الرائج للاصطلاح، والمحصلة هنا ليست المحصلة الضعيفة، أي أنه من الممكن ليس هناك عالم مادي من دون حياة، بل بالحري ليس بالتحديد هناك عالم مادي من دون حياة*»[16].

وكتب فيزيائي آخر هو إ. هـ ووكر E.H. Walker، يقول:

«*من الممكن للإدراك أن يتعايش مع جميع إجراءات ميكانيكيا الكم.. مادام كل شيء يقع هو بالنهاية نتيجة إحدى - أو أكثر - حوادث ميكانيكيا الكم، فالعالم بالحري مسكون بعدد لا يحصى تقريباً من المدركات المنفصلة، هي بالعادة وحدات لا يظن أنها مسؤولة عن العمل التفصيلي للكون*»[17].

ويتعارض مثل هذا الاكتشاف مع الاعتقاد بالفصل بين العقل والموضوع.

وبات كل من الانفصال بين العقل والموضوع، وأن الأرض خالية من الإدراك موضع تساؤل أيضاً من قبل نظرية الغايا Gaia الأكثر حداثة، والتي جرى عرضها بشكل رئيسي من قبل لوفلوك Lovelock، وتقترح الغايا أن الأرض من الممكن أن تكون ذات نظام تحكم ذاتي، وتوضح مثل هذه النظرية وتشرح الاستمرارية النسبية لمناخ الأرض، والكميات المدهشة المعتدلة للملح في المحيطات، والمستوى الثابت للأوكسجين، وتسمح هذه كلها للحياة بالنمو والازدهار[18]، ولربما إنه ليس بالصدقة، أو أنه نتيجة حظ عشوائي غير مدبر، أن الأرض حافظت على محيط قادر على دعم الحياة، وبالحري إنَّ نشاط الأرض من الممكن أن يكون نتيجة سلوك تحكم ذاتي، مما يقترح وجود إدراك.

وبلغ الحال الآن إلى درجة أنه حتى الوسائل الكلاسيكية في تأكيد الحقيقة، تعدّ الآن مخطئة وغير صائبة، واعتقد نيوتن أنه بما أن التجارب المتعلقة بالموضوع الفيزيائي تشرك ممارسات غير حية، تفتقر إلى الإدراك، فإن جميع المحصلات من مثل هذه التجارب ينبغي أن تكون متكررة، فالشخص الذي يمارس التجربة، يمكنه أن يعمل بمثابة مراقب غير متحيز، دون أن يكون له أي تأثير على الموضوع المادي،

وإمكانية مثل هذا المراقب غير المتحيز، هي الآن - على كل حال - لم تعد كما يبدو ممكنة، فقد أظهرت ميكانيكيا الكم أن العمل البسيط للمراقبة له تأثير ضاغط على الموضوع المراقب، وقد كتب الفيزيائي جون ويلر John Wheeler يقول:

«هل من الممكن أن الكون جاء إلى الوجود، بموجب بعض المشاعر الغريبة، وبمشاركة الذين شاركوا؟ والمشاركة هي بلا جدال المفهوم الجديد الذي أعطته ميكانيكا الكم، فقد حطمت اصطلاح «مراقب» في النظرية الكلاسيكية، فالإنسان هو الذي يقف آمناً خلف جدار زجاجي سميك يراقب الذي يحدث دون أن يشارك في ذلك، وتقول ميكانيكيا الكم، ذلك لا يمكن أن يعمل»[19].

وتبرهن الاكتشافات العلمية الأكثر حداثة أن مفهوم النيوتونية، والكارتيسينية Cartesian حول ميكانيكية الكون، التي تطورت صدوراً عن الاعتقاد بأن الرب لم يعد ساكناً في العالم، أنها ذات صحة محدودة.

والمذهب العلمي الحديث، الذي يلح على الفحص بدقة، وعلى تحليل حتى أصغر العناصر، ويردد أصداء المحاولة المسيحية لعزل مراتب تسلسل العناصر، قد أعيد تقديره، ويقترح العلم الحديث أن الحقيقة يمكن أن يعثر عليها بشكل أفضل، ليس بمجرد التركيز على انفصال وانعزال العناصر، بل أيضاً بوساطة فهم العلاقة الداخلية لمثل هذه العناصر في داخل نظام أوسع، و«الأجزاء» كما أوضح العالم الفيزيائي ديفيد بوهم David Bohm:

«.. ينظر على أنها في حال ارتباط مباشر، فيها تعتمد علاقاتها الديناميكية - بطريقة يتعذر اختزالها - على وضع النمط كله (وفي الواقع على وضع الأنماط الأوسع التي هي فيها موجودة، وتتوسع نهائياً، ومن حيث المبدأ إلى الكون كله)، وبذلك يقاد المرء إلى مفهوم جديد لكل غير مجزأ، قائم على إنكار الفكرة الكلاسيكية بتحليل الكون إلى أجزاء منفصلة، وموجودة بشكل مستقل»[20].

وفهم علاقة الموضوع بجهاز النمط كله يمكن أن تظهر المزيد من الحقيقة، أكثر من القيام بتحليل العناصر المنعزلة لذلك الموضوع، ويمكن لفهم كيف تعمل العناصر مع بعضها، أن يكون أكثر عطاء من ترتيب هذه العناصر وفق درجات متسلسلة.

ويمكن أيضاً لإصرار الأرثوذكس على القيمة المستمرة للصراع، التي يمكن أن تجد تسويغاً متجدداً في أفكار داروين، ويمكن أيضاً أن تجيز إعادة التقدير، ويمكن

لنظرية الغايا، التي تفترض أن الأرض يمكن أن تكون ذات نظام إدارة ذاتية، وتقترح أن التنظيم الحيوي يشكل أسساً حيوية متعايشة، من أجل تأمين أحوال ذات منافع متبادلة، وهي تقترح أن النظام، والإرتقاء من الممكن حدوثهما، ليس فقط من خلال التحكم، والصراع، والتباري، حسبما تلمح كل من المسيحية الأرثوذكسية، والنظريَّةُ الداروينية ولكن من خلال التعاون.

والتأثير الفاعل للعقائد المسيحية، والعلم الحديث على الحياة الحديثة هو بلا نهاية، وتبنى الطب الأوربي الحديث رأياً حول الجسم البشري مشابهاً لرأي الفيزيائيين الكلاسيكيين حول الكون، وتوصل الأطباء إلى فهم للجسم البشري على أنه عملية ميكانيكية لعناصر غير حية مع قليل - أو من دون - ارتباط بالإدراك، وكان توماس هوبس Thomas Hobbes مناصر مبكر لتصور الجسم كآلة، وقد كتب في عام 1615م يقول: «لأنه ما هو القلب، سوى أنه نبع، وما هي الأعصاب، سوى الكثير من الخيوط، وما هي الأربطة، سوى الكثير من الدواليب، تعطي الحركة إلى الجسد كله»[21]، ومثلما فهم المسيحيون الأرثوذكس الرب على أنه منفصل عن العالم المادي بناء عليه فهم الطب الغربي عمل الجسم البشري على أنه غير مرتبط لا بالعقل أو بالإدراك، ونظر إلى المرض ببساطة على أنه عجز أو قصور في ميكانيكية الأعضاء، وسببه كله موجود في العالم المادي.

ووفق الطريقة نفسها حاول المسيحيون الأرثوذكس إخضاع العناصر الأدنى في الترتيب المتسلسل، وسعى الأطباء الغربيون إلى السيطرة على الجسم، بدلاً من العمل معه، بوساطة تشجيع مقدرته على مداواة نفسه وشفائها، ومثال على هذه الممارسات موجود في التعامل مع تهديد المرض غير الحي ومعالجته بوساطة المضاد الحيوي، وقد أخضع المضاد الحيوي نظام المناعة الجسدية، ومقدرة الجسد الخاصة على الدفاع عن ذاته ضد المرض، وفي الوقت الذي تبين فيه أن المضادات الحيوية ذات قيمة عالية جداً في معالجة الأمراض المهددة للحياة، فإنَّ الاستخدام المتوالي لها في أحوال أقل خطراً، قد قاد إلى نشوء مجموعة كبيرة جداً من الأمراض، وأنتجت مقاومة جديدة للجراثيم التي لا تستجيب إلى أي نوع معروف من المعالجة، ويدعو الآن كثيرون إلى إعادة النظر في المفهوم الطبي الحديث، من أن الجسد هو أداة ميكانيكية مفرغة من أي ارتباط بالإدراك، وهي أداة من الأفضل إخضاعها.

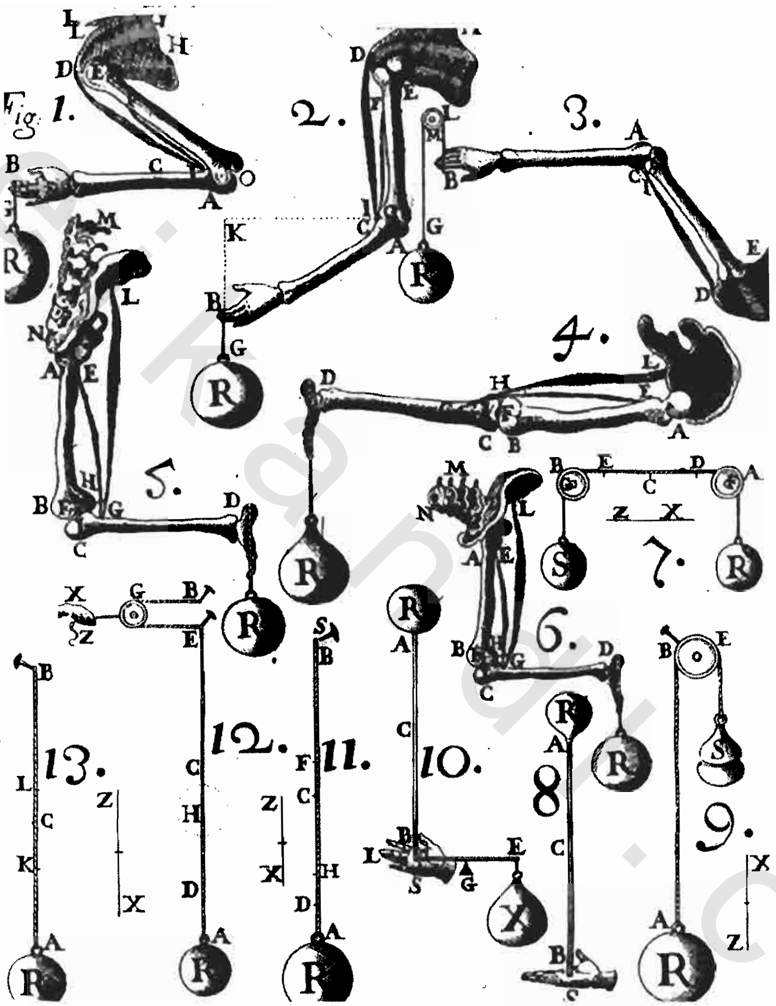

نشرت هذه اللوحة المحفورة عام 1680، وهي تمثل الجسم البشري وهو يعمل بشكل آلي على شكل وحدات مستقلة تماماً عن المشاعر الإنسانية، ويعكس هذا الفهم الذي جرى تبنيه من قبل الطب الغربي الاعتقاد الأرثوذكسي المسيحي بأن الرب بات مبعداً عن العالم المادي.

obeikandi.com

وأثرت العقيدة المسيحية الأرثوذكسية على التجارة الحديثة وعلى الصناعة، ففي تقليد ومحاكاة مراتب التسلسل الكهنوتي، بنيت الأعمال على أساس إيداع السلطة وتحويلها إلى سلطة فردية على رأس التنظيم، ونظر إلى الاعتقاد أن الخوف، والتحكم، والتنافس الضروري جداً للحفاظ على مراتب التسلسل اللاهوتي، أنه سمة ضرورية للعمل، ومثلما كان الاعتقاد أن الاتساق ينتج وحدة، مثل ذلك أعطى رجال الأعمال القيمة إلى التكيف والانسجام، وتشكيل أنفسهم من أناس من عرق واحد، وجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) متشابه وعقيدة متماثلة.

وحديثاً أكثر، وجد - على كل حال - عدد من الشركات بناء أفضل وعقيدة أحسن، لتكون أكثر ربْحاً، وذلك في أعمال جرى فيها تقدير العاملين وتثمينهم، ومنحوا سلطات مع الملاك، ومسؤوليات غالباً ما عملت في سبيل إنتاج أكبر من إنتاج الذين التزموا بدقة بنمط المراتب المتسلسلة فالتعاون في كل من داخل الشركة، وكذلك أيضاً مع مورديها الخارجين، قد تبرهن أنه أكثر من التنافس الذي كان صاحب قدر كبير من قبل، وبالإضافة إلى ذلك يعيد بعضهم النظر في الاتساق والتماثل في مكان العمل، ففي محيط يمتلك فيه الناس عدم تماثل منظوري، وطرقاً متنوعة ومختلفة لحل المشاكل، هو محيط فيه إمكانات أفضل لإيجاد حلول خلاقة، من المحيط الذي فيه يفكر كل واحد بالطريقة نفسها.

وبصرف النظر عن تأثير العلم، نجد أن الفلسفة، والطب، والعمل، والمسيحية الأرثوذكسية كان لها تأثير هائل، على البناء الاجتماعي الحديث، والحكومة، فالاعتقاد بتفوق فردي، وبالمراتب المتسلسلة، والطبيعة الإنسانية المتأصلة بالذنوب، قد أعاقت الجهود لإيجاد مجتمعات تعددية، تقدر عالياً الإدارة الذاتية للفرد، فالقدرة والسلطة في داخل مثل هذا البناء العقائدي، ينبغي أن تنزل من الذروة الفردية، لا أن ترتفع من جذور تعددية، وأي شيء يمكن أن يقوي الفردية، يستطيع في النهاية أن يتحدى مثل هذا البناء السلطوي.

ولم يكن على سبيل المثال - على الإطلاق في نية قادة المتطهرين في إنكلترا الجديدة تأسيس حكومة تمثل آراء الناس ورغباتهم[22]، وقد كتب المتطهر جون كوتون John Cotton يقول: «أنا لا أتصور أن الديموقراطية قد أمر الرب بها لتكون حكومة موائمة لكل من الكنيسة أو للصالح العام، وإذا كان أفراد الشعب هم

obeikandi.com

الحكام، فمن الذي سوف يحكمون؟»[23]، وكما كتب المؤرخان يوسف غير Caer، وبن سيغيل Siegel يقولان:

«استنبط المتطهرون اعتقاد أن العمل الرئيسي للحكومة هو: ضبط فساد الإنسان، كما ينبغي إطاعة قادتها المعينيين إلهياً من دون سؤال أو اعتراض، وأن مصالح الدولة وازدهارها أهم بكثير من الأفراد»[24].

وكانت المبادئ الديموقراطية، التي تأسست في الولايات المتحدة، قد خلقت على الرغم من المسيحية الأرثوذكسية، وليس بسببها، بحكم أن المعاهدة التي كتبت خلال إدارة جورج واشنطن، وجرى التصديق عليها من قبل مجلس شيوخ الولايات المتحدة في عام 1797م، قد بينت أن «حكومة الولايات المتحدة، ليست بأي معنى من المعاني، قد تأسست على الديانة المسيحية»[25].

وباستمرار عارض المسيحيون الأرثوذكس الحرية الدينية في أمريكا، وقد عبر المتطهر جون نورتون John Norton عن رأي الأرثوذكس في حرية العبادة بأنها مثل «حرية الكفر، والحرية لتضليل الآخرين عن الرب الحقيقي، والحرية لقول الكذب باسم الرب»، وعندما أجاز فيرمونت Vermont مرسوماً أباح فيه الحرية الدينية، رددت مجلة دارتماوث Dartmouth Gazette (18 تشرين الثاني 1807) أصداء مشاعر الأرثوذكس، الذين دعوا المرسوم ووصفوه بأنه مثل صارخ «على الخبث المميت، والألم الرهيب، ونتائجه اللعينة لابد أن تفضي إلى هدم روح الديموقراطية»[26]، وفي أثناء ذلك بَذَلَ كل من توماس جيفرسون Thomas Jefferson وجيمس ماديسون James Madison جهودهما لفصل الكنيسة، أشار ماديسون إلى التاريخ، وحاجج أنه في كل مرة قامت فيها «مؤسسات كنسية» بتشكيل مجتمع مدني قاموا بتأييد الدكتاتورية، ولم يقوموا قط بحماية حريات الشعب[27].

ولم تبذل التنظيمات الكاثوليكية جهوداً أكبر من جهود البروتستانت لتأييد الحرية الفردية، والديموقراطية، وحين قاومت الكنيسة الكاثوليكية الماغنا كارتا Magnacarta في القرن الثالث عشر، ثم أسست سابقة الدول الاستبدادية المطلقة مع محاكم التفتيش، وبعد ذلك رفضها الاعتراض على محاولة النازية إبادة اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية[29]، حين قامت بهذا كله صارت بطلة الفاشية ونصيرتها، والمعارضة للديموقراطية والحرية، وذلك حسبما كتب في القرن التاسع عشر البابا غريغوري السادس عشر يقول:

في الوقت الذي شعر فيه بعض الأمريكيين بالتهديد الصادر عن الكنيسة الكاثوليكية لمبادئ دستورهم (كما هو واضح في المنحوتة هذه التي تاريخها هو عام 1855) قليلون جداً هم الذين كانوا على دراية بالتهديد المماثل الذي صدر عن فروع البروتستانتية في تزييف الدستور وقانون الحريات ومن ثم قيام الآباء المؤسسين للولايات المتحدة برفض عقيدة المسيحية الأرثوذكسية، وذلك حسب القرار الذي صدق عليه مجلس الشيوخ الأمريكي في 1797م وجاء فيه: «إن حكومة الولايات المتحدة ليست قائمة بأي حال من الأحوال على الديانة المسيحية».

«إنه ليس بحال من الأحوال شرعياً، لأن تطالب، أو أن تدافع، أو أن تمنح الحرية غير مشروطة للتفكير، أو للتعبير، أو للكتابة، أو للديانة، وكأنهم بين حريات كثيرة، قد منحتها الطبيعة إلى الإنسان»[30].

وبنظر الأرثوذكس ينبغي ممارسة القوة والسلطة فقط من قبل الذين على رأس المراتب اللاهوتية المتسلسلة.

وقدمت المسيحية الأرثوذكسية الأسس العقائدية للعلم الحديث والمجتمع، وذلك منذ أن قبل الناس فكرة أن الرب موجود في السموات وليس على الأرض، وأنه ليس هناك تدخل غير اعتيادي أو سحر، بدأ العلماء والفلاسفة يؤكدون صحة وجود مثل هذا العالم، وهم أيضاً أيدوا الاعتقاد المسيحي الأرثوذكسي بضرورة الصراع والتحكم، وباتت هذه العقائد والمفاهيم الآن - على كل حال - موضع شك وتساؤل، ليس فقط بسبب ممارساتها الارتدادية إلى الوراء، بل أيضاً بسبب محدودية صحتِّها العلمية.

obeikandl.com